عظمته ممالك الفرس

يمدحه ويهنئه بالنيروز ويصف سيفاً قلده إياه وفرساً حمله عليه وجائزة وصله بها وكان قد عاب القصيدة الرائية الآتية عليه :

[الخفيف]

جَـــاءَ نَـــيْـــرُوزُنَـــا وَأَنْـــتَ مُـــرَادُهْ،
وَوَرَتْ بِـــــالَّـــــذِي أَرَادَ زِنَـــــادُهْ[١]
هَـــذِهِ الـــنَّـــظْـــرَةُ الَّـــتِـــي نَـــالَـــهَـــا مِـــنْـــ
ـكَ إِلَـــى مِـــثْـــلِـــهَـــا مِـــنَ الْـــحَـــوْلِ زَادُهْ[٢]
يَـــنْـــثَـــنِـــي عَـــنْـــكَ آخِـــرَ الْـــيَـــوْمِ مِـــنْـــهُ
نَـــاظِـــرٌ أَنْـــتَ طَـــرْفُـــهُ وَرُقَـــادُهْ[٣]
نَـــحْـــنُ فِـــي أَرْضِ فَـــارِسٍ فِـــي سُـــرُورٍ
ذَا الـــصَّـــبَـــاحُ الَّـــذِي نَـــرَى مِـــيـــلَادُهْ[٤]
عَـــظَّـــمَـــتْـــهُ مَـــمَـــالِـــكُ الْـــفُـــرْسِ حَـــتَّـــى
كُـــلُّ أَيَّـــامِ عـــامِـــهِ حُـــسَّـــادُهْ[٥]

---

(١) و (٢) النيروز من أعياد الفرس المجوس قبل الإسلام، وهو أول يوم من سنتهم. الزنادة، الواحد زند: الحجر تقدح به النار. يربط الشاعر بين جلالة ذلك العيد في مطلع عام جديد، تتفتح معه الطبيعة وتُشرق معه بسمة الربيع، وكلّ شيء يهمّ بالنهوض والإشراق، لاستقبال طلعة الممدوح، وذلك أن المناسبة هذه تطلّ كلما حال الحول تتزوّد من الممدوح بمدد من طلعته.

(٣) الطرْف، بسكون الراء: النظر. الرقاد: النوم. للزمن إحساس الحسرة، ذلك اليوم يلفظ لحظاته الأخيرة وفي نفسه حسرة، يعتصره الألم، فلا يعرف للنوم طعماً ولا يُحسّ بطعم السعادة في حال طلع على غيره حتى يُشرق الممدوح بجميل طلعته.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. يتحدث الشاعر بلسان الجماعة، فالكلّ ينعمون بلحظة فرح والسعادة تطفح بها الوجوه، والعيد بشائره تنعكس في شتى ظواهر الوجود، وممالك الفرس.

(٥) يحتفلون بذلك اليوم ويفضلونه على سائر أيام السنة، ممَّا جعل تلك الأيام تغار منه وتحسده لما فيه من نعم.

مَا لَبِسْنَا فِيهِ الأَكَالِيلَ حَتَّى
لَبِسَتْهَا تِلَاعُهُ وَوِهَادُهْ[١]
عِنْدَ مَنْ لَا يُقَاسُ كِسْرَى أَبُو سَا
سَانَ مُلْكاً بِهِ وَلَا أَوْلَادُهْ[٢]
عَرَبِيٌّ لِسَانُهُ، فَلْسَفِيٌّ
رَأْيُهُ، فَارِسِيَّةٌ أَعْيَادُهْ[٣]
كُلَّمَا قَالَ نَائِلٌ أَنَا مِنْهُ
سَرَفٌ، قَالَ آخَرٌ: ذَا ٱقْتِصَادُهْ[٤]
كَيْفَ يَرْتَدُّ مَنْكِبِي عَنْ سَمَاءٍ
وَالنِّجَادُ الَّذِي عَلَيْهِ نِجَادُهْ[٥]

---

(١) التلاع، الواحدة تلعة: المرتفع من الأرض. الوهاد، الواحدة وهدة: المنخفض من الأرض. في ذلك اليوم يتزيّن البشر احتفاءً بتلك المناسبة، فيلبسون أجمل الحُلل والثياب الفاخرة، حتى معالم الطبيعة من تلاع ووهاد شاركت في الفرحة فخلعت على نفسها أجمل مظاهر الجمال الطبيعي الخلاب، وارتدت المرزكش من الألوان فبدت وكأنها في عرس.

(٢) شرع الشاعر بمدح ممدوحه الفارسي الذي فاق ملكه ملك كسرى مؤسس الملك السّاساني.

(٣) يمدح الشاعر ممدوحه إنه يجمع شتات معارف عصره، فلسانه عربي مبين ومطّلع على آثار العرب في شتّى معارفهم، فضلاً عن أنه متضلّع بالفلسفة الإسلامية واليونانية، وذو رأي حكيم، وأعياده أعياد الفرس؛ النيروز والمهرجان. نسي الشاعر الأعياد الإسلامية، وهذا ما يدعو إلى الاستغراب.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. النائل: العطاء. السرف: التبذير. يمدح الشاعر ممدوحه بالكرم، فإذا أعطى عطاءً أوليًّا كثيراً بإسراف أتبعه بعطاء آخر أكثر منه بحيث يُعتبر العطاء الأول عطاء اقتصاد.

(٥) النجاد: حمالة السيف. يفخر الشاعر بسيف قلّده إيّاه الممدوح، وبهذا السيف يفخر ويعتزّ وكأنه بلغ أعلى السماكين. ولذا فإنه يُفاخر كلّ الناس بما احتواه من فخر.

قَـلَّـدَتْـنِـي يَـمِـيـنُـهُ بِـحُـسَـامٍ
أعْـقَـبَـتْ مِـنْـهُ وَاحِـداً أجْـدَادُهْ[١]
كُـلَّـمَـا ٱسْـتَـلَّ ضَـاحَـكَـتْـهُ إيَـاةٌ
تَـزْعُـمُ الـشَّـمْـسُ أنَّـهَـا أرْآدُهْ[٢]
مَـثَّـلُـوهُ فـي جَـفْـنِـهِ خَـشْـيَـةَ الْـفَـقْـدِ
فَـفِـي مِـثْـلِ أثْـرِهِ إغْـمَـادُهْ[٣]
مُـنْـعَـلٌ لَا مِـنَ الْـحَـفـا ذَهَـبـاً يَـحـ
ـمِـلُ بَـحْـراً فِـرِنْـدُهُ إزْبَـادُهْ[٤]
يَـقْـسِـمُ الْـفَـارِسَ الـمُـدَجَّـجَ لَا يَـسْـ
ـلَـمُ مِـنْ شَـفْـرَتَـيْـهِ إلَّا بِـدَادُهْ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٢. قلّد: أعطى. لقد تكرّم الممدوح ومنح الشاعر هذا السيف، إنه سيف مميّز صنع من أفضل أنواع الحديد، فلم يُطبع مثيل له.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. إياة الشمس: ضوءها. الأرْآد، الواحد رأد: ارتفاع الضحى ورونقه. يصف الشاعر توارد الأضواء وانعكاساتها، فإذا استلّ السيف من غمده تولّدت الأنوار وانعكست الأضواء، فإذا بالشمس يلتمع مقابلها نور يخطف الأبصار ويُضاهي شعاعها فتعترف بأن ذلك الضوء كضوئها.

(٣) وردت الأبيات الأربعة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. مثّلوه: قلّدوا مثيلاً له. الأثر: الفرند، والفرند جوهر السيف. يصف الشاعر غمد السيف وجفنه، فقد حلّيا بنقوش متشابهة ليكون ذلك مدعاة إثارة إعجاب من رآه ثابتاً لا تتغير حالة الإعجاب في كلا الحالين، في سلّه ووضعه في غمده.

(٤) منعل: أي ينتعل نعلاً. لا يزال الشاعر يصف السيف ومستلزماته، لقد جعل نعله ذهباً كأنه بحر تموج موجاته فيطفو على وجهه زبد أي يشعّ ضياءً ونوراً تماماً كموج البحر في حال انعكاس الشمس على سطحه وإزباده.

(٥) المدجج: تام السلاح لباساً وعتاداً. البِداد: حشية تجعل في جانب السرج. يصف الشاعر أثر السيف لدى استعماله، إنه إذا ضرب به البطل القويّ شطر الكميَّ المدجج =

جَـمَـعَ الـدَّهْـرُ حَـدَّهُ وَيَـدَيْـهِ
وَثَـنـائِـي فَـاسْـتَـجْـمَـعَـتْ آحَـادُهْ(١)
وَتَـقَـلَّـدْتُ شَـامَـةً فـي نَـدَاهُ
جِـلْـدُهَـا مُـنْـفِـسَـاتُـهُ وَعَـتَـادُهْ(٢)
فَـرَّسَـتْـنَـا سَـوَابِـقٌ كُـنَّ فِـيـهِ
فَـارَقَـتْ لِـبْـدَهُ وَفِـيـهَـا طِـرَادُهْ(٣)
وَرَجَـتْ رَاحَـةً بِـنَـا لا تـرَاهَـا
وَبِـلَادٌ تَـسِـيـرُ فـيـهـا بِـلَادُهْ(٤)
هَـلْ لِـعُـذْرِي عِـنْـدَ الْـهُـمَـامَ أَبِـي الْـفَـضْـلِ
قَـبُـولٌ سَـوَادُ عَـيْـنِـي مِـدَادُهْ(٥)

= بالسلاح شطرين، ومن عظم الضربة فإنها تهوي لتصل الفرس فينشطر بدوره مع صاحبه، فلا يبقى سوى جانبي السرج، ويحدث ذلك في أيّ شفرتي السيف كان الضرب.

(١) ينتقل الشاعر إلى مدح ممدوحه إضافة إلى تنويهه بقيمة شعره. وسيف تلك مواصفاته لا بدّ له من يد قوية تستعمله؛ إنها يد الممدوح وما يجعل المشهد مكتملاً فلا بدّ من شاعر عظيم يصف ما عليه من جمال وقوّة كلّ منهما.

(٢) الشامة: الخال. الندى: الكرم. المنفسات: النفيس من كلّ شيء ما هو ذات قيمة عالية. العتاد: عدّة الحرب. يتحدّث الشاعر عن كرم ممدوحه؛ فقد أهداه من المال الشيء الكثير، فبدا السيف كالشامة في وجه عطاياه من مال وعتاد وجياد وغيرها ممّا لدى الممدوح وباستطاعته تقديمه عن رضى.

(٣) فرّستنا: جعلت منا فرساناً. السوابق من الخيول: السريعة. الندى: الكرم. اللبد: ما يوضع تحت السرج. الطراد: المطاردة في السباق والصيد. يتحدّث الشاعر واصفاً تلك الخيول بأنها أصيلة ومدرّبة أحسن تدريب في القتال والصيد؛ وهذا ما جعل من الشاعر فارساً يُحسن ركوب الخيل وقيادتها.

(٤) لقد أملت تلك الخيول أن ترتاح في حال انتقال ملكيتها إلى الشاعر، ولكن خاب أملها لأنه شجاع يُقاتل إلى جانب ممدوحه في حروبه أو في طراده، لذا لم يطرأ على حياة تلك الجياد أي جديد.

(٥) المداد: الحبر. الهمام: البطل الشجاع الكريم. يُقدّم الشاعر اعتذاره لممدوحه، فقد =

أَنَــا مِــنْ شِــدَّةِ الْــحَــيَــاءِ عَــلــيــلٌ
مَــكْــرُمَــاتُ الــمُــعِــلِّــهِ عُــوَّادُهْ[١]
مــا كَــفَــانِــي تَــقْــصِــيــرُ مــا قُــلْــتُ فِــيــهِ
عَــنْ عُــلَاهُ حَــتَّــى ثَــنَــاهُ ٱنْــتِــقَــادُهْ[٢]
إِنَّــنِــي أَصْــيَــدُ الْــبُــزَاةِ وَلَــكِــنَّ
أَجَــلَّ الــنُّــجُــومِ لَا أَصْــطَــادُهْ[٣]
رُبَّ مــا لَا يُــعَــبِّــرُ الــلَّــفْــظُ عَــنْــهُ
وَالَّــذِي يُــضْــمِــرُ الْــفُــؤَادُ ٱعْــتِــقَــادُهْ[٤]
مَــا تَــعَــوَّدْتُ أَنْ أَرَى كَــأَبِــي الْــفَــضْــلِ
وَهٰــذَا الَّــذِي أَتَــاهُ ٱعْــتِــيَــادُهْ[٥]

= مدحه بشعر دون ما عُرف عن المتنبي من شعر فصيح عالي الرتبة في أشعاره لبدر بن عمار وللحمدانيّين، وبالأخصّ لسيف الدولة ولكافور. وهذا ما يُلاحظ حتى في هذه القصيدة، ولعلّ الفيض الشعري بدأ يجفّ آنئذٍ في عبقرية المتنبي العظيمة إضافة إلى فقدان حماسه المعهود في مطالع قصائده. إنه على استعداد ليقدّم سواد عينيه مِداداً لمدح أبي الفضل.

(١) العوّاد: الواحد عائد: زائر المريض، يُعبّر الشاعر عن حيائه، فالهدايا تنهال عليه كلّ يوم من قبل الممدوح، وهو يشعر بالمرض وتلك الهدايا بمثابة العوّاد، وهو يقدّم اعتذاره لإحساسه بالقصور، فلم يُكافِئ الممدوح بمدحه، وهو الخبير بجيّد الشعر، وقد انتقده لقصور شعره بين يديه.

(٢) يُفنّد الشاعر أسباب اعتذاره من ممدوحه أنه لم يفِهِ حقّه من المدح، ولعلّه لم يجد في الممدوح ما وجده في غيره ممن مدح في السابق، ولقد أرجع الممدوح في نقده للشاعر عجزه عن وصفه؛ وهذا ما جعل الشاعر يستحيي.

(٣) يعترف الشاعر بأنه أشعر الشعراء ويستطيع اصطياد أفصح المعاني وأجودها، ومهما ارتفع في سماء الشعر فإنه لن يدرك ويُسامي ما كان عليه ابن العميد من سؤدد وعظمة، فإذا به يقصّر في مدحه إياه.

(٤) يلجأ الشاعر إلى معادلة منطقية مفادها أن القلب مكمن المشاعر الفيَّاضة فلا تبدو لعجز اللسان عن التعبير عنها، حتى وإن وجد الإخلاص في صدق المشاعر.

(٥) ومن خلال اعتذار الشاعر لابن العميد أنه لم يُصادف أن مدح من هو بوزنه، وذلك =

إنَّ فـي الـمَـوْجِ لِـلْـغَـرِيـق لَـعُـذْراً
وَاضِـحـاً أنْ يَـفُـوتَـهُ تَـعْـدَادُهْ[١]
لِـلـنَّـدَى الْـغَـلْـبُ إنَّـهُ فَـاضَ وَالـشِّـعْـ
ـرُ عِـمَـادِي وَٱبْـنُ الْـعـمِـيـدِ عِـمَـادُهْ[٢]
نَـالَ ظَـنِّـي الأُمُـورَ إلَّا كَـرِيـمـاً
لَـيْـسَ لِـي نُـطْـقُـهُ وَلَا فِـيَّ آدُهْ[٣]
ظَـالِـمُ الْـجُـودِ كُـلَّـمَـا حَـلَّ رَكْـبٌ
سِـيـمَ أَنْ تَـحْـمِـلَ الْـبِـحَـارَ مَـزَادُهْ[٤]

= تفضيل للممدوح على من مدح المتنبي من الرجال، وهذا عذر في غير محلّه، فلو كان صحيحاً ما قال كان لا بدَّ له أن يعلو في شعره بقدر مستوى الممدوح الذي فضله على سائر ممدوحيه، ويردّ الشاعر نقد شعره أن ممدوحه أريب وعالم بفنون الشعر، وهذا ليس صحيحاً، فسيف الدولة شاعر عربي مثقف وبلا أدنى شكّ أنه أكثر دراية من ابن العميد بالشعر، فضلاً عن حاشيته من الشعراء والعلماء الكبار في العصر.

(١) يُردف الشاعر قوله أنه بمثابة غريق في بحر لُجيّ تتدافع أمواجه بقوّة وعنف، فلا يستطيع عدّ تلك الأمواج، ولقد غرق الشاعر بما لدى ممدوحه من صفات لا يُمكن حصرها وعدّها لمفاجأته بها دفعة واحدة دون سابق إنذار، وهذا من أسباب تقصيره.

(٢) الندى: الكرم. لقد طمر ابن العميد للشاعر بفيض هداياه وكرمه فكانت الغلبة للممدوح فضلاً عن أنه نقادة للشعر، لذا فلا يمكن للشاعر مغالبته. ويبدو الأمر خلاف ذلك فقد كان الشاعر في ما سبق يستثير كرم ممدوحه ليحصل على ماله، لأنه كان بحاجة إلى المال، أما في هذه الحالة فالمال وفير لديه والحافز غير متوفّر لبذل أقصى الجهد، ثم إن ابن العميد يتلهّف ليمدحه المتنبي، وتلك هي الحقيقة.

(٣) يروى «طبّي» بدلاً من «ظنّي». الآد: القوّة. يُقرّ الشاعر بعجزه وقصوره عن إيفاء ممدوحه حقّه من جيّد المديح، رغم تقليبه الأمور على سائر وجوهها فضلاً عن كرمه الفيّاض؛ فسبب ذلك فصاحة الممدوح ومعرفته بنقد الشعر وتمييزه بين الجيد والرّديء منه.

(٤) سِيم: كلف. المزاد، الواحدة مزادة: القِربة. يمدح الشاعر ممدوحه بكرمه العظيم؛ إنه ظالم الجود بفيض منه بلا حساب على من يقصده بحيث لا يستطيع حمل ما يحصل عليه كمن يحمل قِربة لا تقدر على استيعاب مياه البحر.

غَـمَـرَتْـنِـي فَـوَائِـدٌ شَـاءَ فِـيـهَـا
أَنْ يَـكُـونَ الْـكَـلَامُ مِـمَّـا أُفَـادُهْ[١]
مَـا سَـمِـعْـنَـا بِـمَـنْ أَحَـبَّ الْـعَـطَـايَـا
فَـاشْـتَـهَـى أَنْ يَـكُـونَ فِـيـهَـا فُـؤَادُهْ[٢]
خَـلَـقَ الـلَّـهُ أَفْـصَـحَ الـنَّـاسِ طُـرًّا
فِـي مَـكَـانٍ أَعْـرَابُـهُ أَكْـرَادُهْ[٣]
وَأَحَـقُّ الْـغُـيُـوثِ نَـفْـسـاً بِـحَـمْـدٍ
فِـي زَمَـانٍ كُـلُّ الـنُّـفُـوسِ جَـرَادُهْ[٤]
مِـثْـلَـمَـا أَحْـدَثَ الـنُّـبُـوَّةَ فِـي الْـعَـا
لَـمِ وَالْـبَـعْـثَ حِـيـنَ شَـاعَ فَـسَـادُهْ[٥]

---

(١) يُحاول الشاعر التخلّص من شعوره بالحرج والاعتذار، فالممدوح لم يترك لمادحه حجّة يحتجّ بها إلّا ولجها؛ فقد أفاض عليه كرماً عظيماً كما يقول ثم إنه فتح له باباً جديداً بنقده لشعره حتى يُصلحه، وذلك أيضاً باب جديد من مكارم الممدوح.

(٢) الممدوح نموذج جديد من الكرماء، فالمال الناس فيه شركاء، كلّ يُعطي حسب مقدرته وألمعيته، وللمرّة الأولى وجد الشاعر أن ممدوحاً يتكرّم بقلبه وعقله وعلمه ليكشف عمّا لديه من معارف قلّما تتوفّر لغيره، وهو يقدمها بحبّ ورغبة بلا مَنٍّ.

(٣) طرًّا: جميعاً. يفضّل الشاعر ممدوحه، إنه عطاء إلهيٌّ أن خلق أفضل الناس لساناً عربياً، ففاق العرب في علومهم ولغتهم، في مكان بعيد عن مواطنهم، في فارس بين قوم لا يُحسنون من العربية شيئاً، وهذا سرّ إعجاب الشاعر بممدوحه.

(٤) يمدح الشاعر ممدوحه مفضلاً إيّاه على سائر الكرماء، إنه غيث، والغيث تعمّ فائدته سائر الكون، أرسله اللّه عزّ وجلّ فاستحقّ الحمد في وقت عمّ الجدب الأرض وانتشر البشر كالجراد، همهم نهب الخيرات والاستئثار بها خلاف الممدوح.

(٥) إن الله تعالى بعث النبيين والمرسلين للبشر في حالات تخبّط البشريّة في أتون الأنانية والإلحاد، فإذا ببعثهم أفضل حالات إعادة الأمور إلى نصابها الحقيقي، حيث العدالة والإخاء الإنساني، والممدوح بمثابة نبيّ أرسله اللّه تعالى ليُعيد للإنسان كرامته ويُعمّ الثراء بين البشر.

زَانَتِ اللَّيْلَ غُرَّةُ الْقَمَرِ الطَّا
لِعِ فِيهِ وَلَمْ يَشِنْهُ سَوَادُهْ[١]
كَثُرَ الْفِكْرُ كَيْفَ نُهْدِي كما أَهْ
دَتْ إِلَى رَبِّهَا الرَّئِيسِ عِبَادُهْ[٢]
وَالَّذِي عِنْدَنَا مِنَ الْمَالِ وَالْخَيْ
لِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وَقِيَادُهْ[٣]
فَبَعَثْنَا بِأَرْبَعِينَ مِهَاراً
كُلُّ مُهْرٍ مَيْدَانُهُ إِنْشَادُهْ[٤]
عَدَدٌ عِشْتَهُ يَرَى الْجِسْمُ فِيهِ
أَرَباً لا يَرَاهُ فِي مَا يُزَادُهْ[٥]
فَارْتَبِطْهَا فَإِنَّ قَلْباً نَمَاهَا
مَرْبِطٌ تَسْبِقُ الْجِيَادَ جِيَادُهْ[٦]

---

(١) غرّة القمر: طلعته وضوءه. شان: عاب. عمّ الفساد في الأرض واختلطت المقاييس وتبدّلت الأحوال، والناس في هرج ومرج، والممدوح صامد في عرش كماله، فكان بمثابة القمر الذي ينشر الأنس والحبّ والحنان بين البشر، فلم تدنّسه ظلمة الليل الدامس.

(٢) و (٣) إن الشاعر في حيرة من أمره، فهو يرغب في تقديم شيء ممَّا يملك، ينظر حواليه، فإذا بكلّ ما لديه من عطاء الممدوح، ومن غير اللائق ردّ الهدية لمن أعطاها، ففي ذلك إهانة للسيد لا تعدلها إهانة، ولقد وجّه للشاعر من المال والخيل الكثير.

(٤) المهر، ولد الفرس، يقصد الشاعر بذلك الأبيات من الشعر. اهتدى الشاعر أخيراً إلى جزاء أوفى يُرضي الممدوح، إنها قصيدة مؤلّفة من أربعين بيتاً من الشعر تنشد بين يدي الممدوح.

(٥) يدعو الشاعر لممدوحه أن يعيش من السنين بعدد أبيات القصيدة الأربعين، ويتمنّى له دوام الصحة والعافية زيادة عمّا عاشه من العمر.

(٦) يُنهي الشاعر قصيدته متمنياً على ممدوحه أن يحتفظ بها، إنها فيض قلب تنسب إليه، ذلك أن جياده سبّاقة، فلا يستطيع جواد اللحاق بجياده، وهو في ذلك يفخر على سائر الشعراء.